ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

مكانة زاوية الهامل
في حشد همم سكان الحضنة لمقاومة البدع وطمس الشخصية الوطنية
منذ الاحتلال الفرنسي إلى الحرب العالمية الأولى

د. فاطمة الزهراء سبدهم

أستاذة محاضرة

كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية

جامعة معسكر – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

يتعرض المقال لمكانة زاوية الهامل بريادة شيخها العالم السيد محمد بن أبي القاسم، الذي أسس معهده بمباركة من مؤسس الدولة الجزائرية الأمير عبد القادر، الذي عرفه أثناء أداء واجب الجهاد في مجابهة الاستعمار، حينما كان في المنطقة الشرقية للجزائر. وهذا المقال يتعرض كذلك لمقاومة السكان ورجال الدين للاستعمار بكل الوسائل المتاحة، بما في ذلك العلم بجميع فروعه. لأن تكوين الفرد يعتبر من الركائز الأساسية في بناء الأمة الاسلامية. هذه الامة التي حاول الاستعمار بمساعدة أذنابه، التفرقة بين قبائلها وأفرادها، مستغلين الاحقاد الدفينة التي غُرست في المجتمع الجزائري عبر الأجيال السابقة من قبل من حكموا البلاد، رغبة منهم في التحكم في خيراتها وقهر عبادها. عاش سكان الحضنة مرحلة البداوة ولم تسلم عشائرهم من الخصومة، وكان عرش أولاد دراج وأولاد ماضي من أهم عروش المنطقة انتشارًا جغرافيًا. وقد تم تحديد مساحة أراضيه بعد الاحتلال الفرنسي ليسهل التحكم في تنقل أفراده، وحصر عدد خيامه، وعدَ عدد رؤوس قطعانه من الأغنام والابل. لأن هذه القبيلة محاربة ولها دور كبير في تاريخ المنطقة وهي تضم قبيلة أولاد ماضي وفرقًا وبطونًا صغيرة ذات أصول مختلفة، وحينما تتحد ضد الاستعمار يكون لها جأش كبير، هذا ما دفع بالفرنسيين لاستخدام المكاتب العربية في التجسس على رجال المنطقة والعلماء والمتصوفة، من أجل التحكم في الأوضاع، وقهر العباد والحدَ من نشاط العلماء.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٠ يناير ٢٠١٤

تاريخ قبول النشر: ٢١ أغسطس ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

زاوية الهامل، منطقة الحضنة، الزوايا، المتصوفة، الاستعمار الفرنسي

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

فاطمة الزهراء سبدهم. "مكانة زاوية الهامل في حشد همم سكان الحضنة لمقاومة البدع وطمس الشخصية الوطنية منذ الاحتلال الفرنسي إلى الحرب العالمية الأولى".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد الخامس والثلاثون؛ مارس ٢٠١٧. ص٦٠-٦٦.

مُقَدِّمَةٌ

البحث في تاريخ الجزائر المحلي في فترة ما قبل الاستقلال الوطني يفتح آفاقًا واسعة أمام الباحثين والمهتمين بالتاريخ الوطني، لأن عدة مواضيع من حياة الأفراد والقبائل لم تخضع بعدُ لدراسة معمقة والبحث فيها بكل موضوعية حسب المعطيات المتوفرة محليًا، لخصوصية الحدث، لأن البحث في مثل هذه المواضيع بأساليب غير سليمة قد يؤدي إلى تفسيرات خاطئة لما يصدر عن الكاتب من آراء ومواقف تصبّ في اتجاهات مُعينة. النهج المتبع في مثل هذه الدراسات يفرض على الباحث التحلي بالحكمة واليقظة، والتدقيق والتمحيص في كثير من المعطيات، ومعالجتها بأساليب علمية وموضوعية مُتجنبًا إبداء الرأي الخاطئ ومُبتعدًا عن الحُكم المُسبق، حتى لا يسقط في ما بطنته سياسة وكتابات الفرنسيين المتشبعين بأفكار المدرسة الاستعمارية من وراء زرعهم بذور الفتنة والفُرقة بين سكان المنطقة التي نخصص لها هذا البحث المتواضع، لأن لا كتاباتهم لا تخلو من تزييف

وتحريف تاريخ الجزائر عامة، مستغلين حساسية الأحداث المحلية والخلافات القبلية المُرتبطة بها خلال فترة الاحتلال الفرنسي، وما سبقها من مُشاحنات بين العائلات العريقة والأهالي وقبائل المخزن أثناء التواجد العثماني في الجزائر، الذين عملوا في كثير من الفترات على زرع الضغائن بين القبائل والمتصوفة بغرض بسط نفوذهم على المناطق المُستعصية عليهم وإخضاعها لحكمهم. ورغم مرور وقت طويل ما زالت الكثير من أساليب هذا المنطق حاضرًا في سلوكيات ومُعاملات بعض القبائل والجماعات التي لم تستطع إلى يومنا هذا التخلص من تلك التصرفات التي تعمل على تنافر وتباعد الأشخاص والقبائل عن بعضهم البعض، أكثر مما تجمعهم وتحثهم على تماسك وترقية المجتمع الذي ينتمون إليه.

(١) جغرافية منطقة الحضنة

بلاد الحضنة لم تكن وليدة العصر الروماني، بل هي ضاربة جذورها في أعماق التاريخ[١] واسمها مُشتق من الاحتضان، ويُرجعه الباحثون إلى الفترة المتأخرة من الحكم العثماني، كما أطلق أهل المنطقة هذه التسمية على السهل الواسع الذي يمتدُّ نحو السبخة المالحة للمسيلة، أو ما يطلق عليه السكان اسم شط السعيدة نسبة إلى دوار السعيدة.[٢]

يمتد هذا الاقليم من الشمال إلى الجنوب بين الأطلس التلي والصحراوي. يحاط بحزام جبلي[٣] في شكل قوس من الأوراس وجبال بلزمة من الشرق إلى جبال ونوغة غربًا. وهي تشكل حدودًا جغرافية متميزة بين المناطق المتوسطية التلية والسهول السهبية والصحراوية للحضنة والزيبان. دخلت المسيلة، وهي عاصمة إقليم الحضنة ضمن الامبراطورية العثمانية في بداية القرن السادس عشر الميلادي ودامت على ذلك مدة أربعة قرون حتى سقوطها على يد الاستعمار الفرنسي يوم (١١ جوان ١٨٤١م) تلتها باقي المناطق كما يشهد على ذلك حجر تأسيس (قنطرة درمل) بجنوب مدينة بوسعادة والنقش الحجري للجيش الفرنسي عند استيلائه على منطقة القامرة جنوب عين الريش، أما ولاية المسيلة فقد انبثقت عن التقسيم الإداري لعام ١٩٧٤والذي بموجبه أصبح في الجزائر(٣١) ولاية (عمالة) بعد أن كان عددها (١٥) ولاية، وليرتفع بعد ذلك إلى (٤٨) ولاية سنة ١٩٨٣م.

ولاية مسيلة هي نقطة وصل بين الشرق والغرب والشمال والجنوب. يحدها من الشمال كل من ولايتي برج بوعريريج والبويرة، ومن الشمال الشرقي ولاية سطيف، ومن الشمال الغربي ولاية المدية، أما من الشرق ولاية باتنة، ومن الغرب والجنوب الغربي ولاية الجلفة. ولاية بسكرة مناخها قاري وهي مركز وسط بين التل والصحراء، ومعظم سطح الولاية مستوية يبلغ ارتفاعها ما بين ٢٠٠ ال ٣٠٠ م فوق سطح البحر. تلقب بعاصمة الحضنة التي كانت عبارة عن مملكة بربرية مستقلة في عهد الرومان ولقبت بهذا الاسم لاحتضانها بين سلسلتي الأطلس التلي والأطلس الصحراوي. اعتبر اقليم الحضنة منذ ١٨٣٧م جزءًا من مقاطعة شرق بلاد الجزائر، وقدرت مساحته سنة ١٨٥١م بـ ٩٠٠□١٧٥ كلم٢، ويعيش على أراضيها ٥٨٠ قبيلة، أكثرها لم يكن خاضعًا للاستعمار الفرنسي، بل كانت تقاومه بكل الوسائل. والإقليم يمتد من أبواب الجزائر العاصمة إلى غاية الحدود التونسية، ويحدها من الشمال البحر الأبيض المتوسط، ومن الجنوب الصحراء.[٤] وعلى اعتبار أن المياه تمتد إليها من جبال التل فقد أصبحت صلة وصل واتصال بين سكان الجبال والسهول بكل يُسر، وظلت منطقة عبور على الدوام في كل الاتجاهات.

(٢) السكان

سكان المنطقة تجمعهم علاقة الدم والمصاهرة والانتماء للقبيلة والدين، ولم تستطع العناصر الدخيلة الذين احتلوا المنطقة مثل الرومان والوندال الانصهار معهم[٥] وقد شكلوا منذ عهود غابرة قوة متماسكة ضدّ الغزاة. وقد وفدت إلى المنطقة جماعات من أصول عربية اندمجت مع السكان المحليين الذين كونوا عروشها الهامة،[٦] ثم وفد على المنطقة عناصر سكانية جديدة نتيجة الحروب التي شهدتها المنطقة، وقد التحمت هذه العناصر المختلفة التي تكون عروش المنطقة مع تطور عناصر العائلة من جهة، وباندماج العناصر الأجنبية عن المنطقة من جهة أخرى، التي وجدت في اسم العرش القوة التي تحميها ويذود عنها. وقد قدرت السلطات الفرنسية عدد سكان الحضنة الغربية بداية الاحتلال ما بين ٢٥ ألف و٣٠ ألف نسمة.[٧]

يرتكز تكوين عرش الحضنة على الاسم، أو ما يُطلق عليه (بالنقمة) أي الاسم العائلي، كما أن الانتساب للأرض له دلالاته في هذا المجال لما للعرش من أهمية في تنظيم الحياة الاجتماعية وتحديد المهام المنوطة بكل فرد وجماعة، كما تُعَدّ روح الجماعة الرابطة الأساسية للانتماء للقبيلة. يعتبر عرش أولاد دراج وأولاد ماضي[٨] من أهم عروش المنطقة انتشارًا جغرافيًا. تشمل أراضي قبيلة أولاد ماضي القسم الأكبر من المنطقة السهبية الممتدة بين وادي القصب (وادي المسيلة) ومنطقة الرمل شمال شط الحضنة إلى وادي الشلال. وقد تم تحديد مساحة أراضيه بعد الاحتلال الفرنسي ب ١٨٠□٠٠٠ هكتار.[٩] وهي قبيلة محاربة لها دور كبير في تاريخ المنطقة[١٠] وتضم قبيلة أولاد ماضي فرقًا وبطونًا صغيرة ذات أصول مختلفة، وينقسم العرش إلى فرعين: فرع أولاد ماضي الأجواد (النبلاء)، وفرع المرابطين (أولاد سيدي حملة)[١١] الذين شاركوا في مقاومة الاستعمار الفرنسي منذ الوهلة الاولى.

(٣) محاولة تفكيك بُنية المجتمع

عاش سكان الحضنة مرحلة البداوة ولم تسلم عشائرهم من الخصومة، وبالمقابل كان التحالف كبير بين عرش أولاد دراج والمقراني حتى في العهد العثماني،[١٢] ولم يسلموا من نقمة الفرنسيين الذين غرسوا الأحقاد والدسائس بين السكان والعائلات النافذة في المجتمع. وكان الغزاة يهدفون في المراحل الاولى للاستعمار إلى مراقبة البدو الرحل الذين اعتبروهم عقبة كبيرة في مدّ السيطرة الاستعمارية على المنطقة، وفي المرحلة اللاحقة الضرب بقوة بنية المجتمع للوصول إلى تثبيت إدارتهم ليسهل تحقيق الأهداف العامة للاستعمار الفرنسي.

تعرضت أراضي العرش وأراضي أخرى للمصادرة بحجة عصيان الاهالي ومقاومتهم للإدارة الاستعمارية، وتم تنفيذ عملية تقسيم عرش أولاد دراج إلى خمسة دواوير، لكل دوار مساحة معينة وخيام معدودة، ولم تتم مراعاة الارتباطات العائلية والعلاقات الاجتماعية التقليدية لسكان المنطقة في هذا التقسيم عن قصد، مما سيؤثر سلبًا على سكان المنطقة وستستثمر فيه الإدارة الفرنسية لخدمة سياستها المتمثلة في "فرق تسد". ولما صدر قانون سينانوس كونسيلت سنة ١٨٦٣م أحدث تفكيكا كبيرًا في بنية المجتمع الجزائري[١٣] لأنه فكك روابط العرش الواحد، وجزأه إلى وحدات صغيرة، كما ستتبع هذا القانون عملية إعادة تقسيم عرش أولاد دراج إلى عدة فرق سنة ١٨٦٧ م.[١٤] ثم بعده قسم عرش السوامعنة سنة ١٨٩٠م إلى أربع فرق كبيرة، وذلك من أجل إعاقة الانسجام بين السكان وخلق ضغائن بين الأفراد والجماعات تكون بردًا وسلامًا على الغزاة الفرنسيين. وعقب هذا التقسيم صدر قانون وراني ١٨٧٣م الذي تم بموجبه تحويل ملكيات العروش إلى ملكيات فردية من أجل تحطيم المجتمع التقليدين الذي ستظهر به فوارق اجتماعية تؤدي إلى حرمان عالم الريف من نمط تربية المواشي والابتعاد عن عقلية التضامن القبلي.

تمثلت السياسة الاستعمارية الفرنسية في تقسيم عروش الحضنة الغربية إداريًا لتحديد مساحات الملكيات، ومصادرة كل الأملاك التي لا يحوز أصحابها على وثائق ثبوتية، على اعتبار أن مُعظم الأهالي ورثوا تلك الأراضي عن طريق الوراثة. وكانت الإجراءات الإدارية الأخرى التي أعقبت العملية عائقًا في وجه تنقل البشر وقطعان الحيوانات التي مُنعت من المرور بالأراضي التي أصبحت تابعة للبلدية (الكومينال) وأراضي الخواص، كما أثر هذا الاجراء على الإنسان الميسُور الذي تحول إلى مُزارع ومربي صغير للمواشي، وهذا أمر بالغ الخطورة، حيث سيؤثر سلبًا على مداخيل الأفراد والجماعات. ونتج عن هذه السياسات الاستعمارية الفرنسية عبر مراحلها المتعددة والمتعاقبة على ازدياد حالة الفقر والبؤس في الأوساط الاجتماعية، وقد أدى ذلك إلى عزوف الأهالي عن توجيه أبنائهم للكتاتيب والمدارس.[١٥]

(٤) عوامل فُرقة السكان

ارتبطت الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر بعدة عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية وصليبية، ولما نزلت القوات الفرنسية التي تراسها وزير الحربية ديبورمون (De Bourmont) بساحل سيدي فرج واجهه جيش الداي حسين بقوات قادمة من بايات تيطري ووهران وقسنطينة، وأمر صهره وحفيده الآغا إبراهيم الذي لا يعرف أي شيء في الشؤون العسكرية، وليست له خبرة في شؤون الحرب[١٦] أن يقود الجيش في المعركة، لكن الغلبة كانت للجيش الفرنسي الذي أحسن تسيير العمليات واستغلال ثغرات المجاهدين. ولما وقعت الجزائر العاصمة في قبضة الفرنسيين قفل الحاج احمد باي الذي شارك في المقاومة عائدًا إلى مقر البايلك بالشرق الجزائري، وكان خصومه قد انقلبوا عليه وهو في طريق العودة الى قسنطينة، ولم يتمكن من استرداد سلطته إلا بحماية قبيلة بني غانة بمنطقة بسكرة الذين دعموه من أجل الانتصار على خصومه والدخول إلى بايلك الشرق.[١٧] ولما شرع الفرنسيون في بسط نفوذهم وسيطرتهم على مختلف المناطق بالبلاد وجد المُستعمر نفسه يجهل لغة الأهالي وعقيدتهم وتقاليدهم والطبيعة الجغرافية للبلاد، وقد حاولوا إيجاد هيئة تكون همزة وصل بين قواته والأهالي، فأحدث الدوق دو روفيقو (Le Duc De rovigo) الحاكم العام للجزائر عام ١٨٣٣م فرعًا من مكتبه سماه "المكتب العربي" الذي أصبح يطلق عليه فيما بعد "مصلحة الشؤون العربية".

كان الصراع بين العروش والأهالي في العهد العثماني تغذيه نقمة الاتراك ورغبتهم في غرس الاحقاد والدسائس بين السكان والعائلات النافذة، لتتمكن من بسط سيطرتها على المناطق المُستعصية، وتصبح موالية لها كما فعلت مع قبائل المخزن المُختلفة،[١٨] وكانت الخلافات القديمة بين العروش والقبائل عاملاً أساسيًا في عدم توحيد صفوف سكان المنطقة ضد عدوهم، وهو عامل أحسن الاستعمار استغلاله لفائدته من أجل غرس بذور الشقاق والفرقة بين القبائل والأفراد.[١٩] كانت مصالح (المكتب العربي) عاملاً مهمًا في تكوين إدارة تقترب مباشرة من الأهالي لجمع المعلومات الخاصة بالعمليات الحربية أساسًا، ومراقبة تحركات القبائل، وحراسة المشبوه فيهم، ومراقبة الزوايا والقادة الروحيين، والتقليص من نفوذ الأسر الكبيرة[٢٠] حتى لا تنساق في الاتجاه المقاوم للغزاة.

شارك سكان منطقة الحضنة في مقاومة الاستعمار منذ الوهلة الأولى، فبعد يومين من ضياع قسنطينة، ولما كان أحمد باي يستعد للانسحاب نحو الصحراء سالكًا طريقه في اتجاه

بسكرة التحقت بصفوفه قبائل المنطقة، لكن فرحات بن السعيد واجهه وألحق به الهزيمة. وبعد هذا الانتصار أرسل هذا الأخير إلى الجنرال فالي (Vallée) حاكم قسنطينة يخبره بانتصاره على أحمد باي، ويطلب منه نجدته بقوات فرنسية لملاحقة عدوهما. لكن الحاكم الفرنسي لم يستجب لطلبه، كما أن الأمير عبد القادر نفسه لم يقربه منه وعين الحسن بن عزوز خليفة على بسكرة والزيبان بعد أن دخل بسكرة منتصرًا.[٢١]

(٥) دور الزوايا في تأطير السكان

يعود تعلق الجزائريين بالزوايا ودور العبادة الاخرى لكون سلفنا الصالح جعل من القرآن الكريم أساس وعماد حياتهم الروحية والاجتماعية، فالصغير ينشأ بتعلم القرآن، والأسرة تربى بالقرآن، والعلم يُفتتح بتعلم القرآن وحفظه، ومدارس العلم أساسها القرآن، وهي تمثل فضاء اجتماعيًا لما تقوم به من تأطير المجتمع المحلي وتوجيهه في إطار العلاقات الاجتماعية المحافظة على التراث والعادات والتقاليد المكرسة،[٢٢] وكما هو معلوم فقد انتشرت الحركة الصوفية في ربوع الجزائر قبل مجيئ العثمانيين بوقت طويل.[٢٣] ولما كان العثمانيون متشبعون بالروح الصوفية، فقد شجعوا الأهالي على رعاية وإقامة الزوايا والأضرحة في كل مكان، ويعتبر العهد العثماني أزهى عصور الطرق الصوفية بالجزائر، ووجد مُروجو الأفكار الطرقية المجال مناسبًا لتعميم انتشار الطرق الصوفية،[٢٤] وعلى سبيل المثال كان في مدينة الجزائر سنة ١٢٤٦هـ (١٨٣١م) اثنان وثلاثون قبة أو ضريحًا، واثنا عشر زاوية.[٢٥] وعند احتلال الفرنسيين للجزائر وانهيار الدولة الجزائرية، احتفظت الزوايا بمكانتها بين الجماهير، وأصبحت رفقة المدارس أسلوبًا ووسيلة لمواجهة سياسة التنصير والتمسيح والفرنسة وحماية الشخصية العربية الإسلامية للجزائريين،[٢٦] وأصبحت الزوايا ورجال الطرق الصوفية الملاذ الآمن لقيادة الجماهير للدفاع عن دينها وعرضها ووطنها.

استفاد المُستعمر من بقايا التنظيم الإداري العثماني وخاصةً فيما يتعلق بالأسر الكبيرة، وقد حاول أن يهيكل تلك القوات تحت وصاية المكاتب العربية[٢٧] التي كان من أبرز مهامها الإشراف على شؤون الاهالي، هذه المكاتب التي استحدثت بعدما خضعت الجزائر لتصرف حاكم عام عسكري مسؤول أمام وزير الحرب للحكومة الفرنسية، بناء على مقررات "اللجنة الافريقية" في ٧ يوليو ١٨٣٣م.[٢٨] ومن بين ما جاء في تقرير اللجنة الافريقية ما يلي: "لقد قضينا تمامًا على أملاك المؤسسات الدينية، وصادرنا ممتلكات فئة من السكان كنا قد وعدنا باحترام ملكيتها، وبدأنا استعمال سلطتنا بفرض غرامة قدرها مئة (١٠٠) ألف فرنك كقرض إجباري... وقتلنا رجالاً يحملون منا ورقة الأمان، وانتهكنا دون خجل بيوت الله والمقابر والدور، وكلها ذات حُرمة لدى المسلمين..."[٢٩] هذه المكاتب التي تلقت تعليمات بمقتضى منشور صادر عن الحاكم العام بتاريخ ٢٧ نوفمبر١٨٤٧م لجمع المعلومات المتعلقة بالزوايا واتباعها.[٣٠] لأن الزوايا كانت تشكل عصب المقاومة والرفض للاحتلال.[٣١] للبعد الروحي والتأثير السياسي للطرق الدينية الذي أصبح يُقلق ضباط (المكاتب العربية) لكون الزوايا كانت تأطر حركاتهم الجهادية المتعاقبة، ومراكز للوطنيين الذين انطلقوا منها للجهاد ضد الغاصب. والزوايا هي التي أمدت هذه الثورات بالرجال والسلاح والمال، وكانت لهم الملاذ الآمن. وكان بعض الكتاب الفرنسيين قد سمى تلك الزوايا بـ: "غريزة البقاء لدى الجزائريين"[٣٢] ويرى النقيب (دنفو) أن الزوايا قد ارست قواعد لعلاقات بين الأفراد، فصارت بذلك أداة اتصال ذات سرعة فائقة.[٣٣]

الزوايا في الجزائر حفظت للأمة المسلمة قرآنها ولغتها ودينها وأخلاقها الاسلامية، إلى جانب الدعوة للجهاد، إذ غالبا ما كانت كل ثورة أو انتفاضة أو مقاومة أو جهاد إلا وهو مقرون باسم شيخ أو زاوية. وقد اعتمد الاستعمار الفرنسي وقادته استراتيجية الحرب الشاملة في تعاملهم مع الشعب الجزائري، لأن الجزائريين كانوا يجدون في الكُتاب الديني قانونهم السياسي والعسكري، حيث يؤكد مارسيل سيمان (Marcel Simian) الأمر قائلاً: "إن تلك المؤسسات الدينية غالبًا ما تتحول إلى معقل الثورة ضد الاجنبي وضد الرومي المُدنس لأرض الإسلام"[٣٤] وإذا كان الجزائريون قد عادوا إلى وسائلهم القديمة في التعليم ونشر الاسلام باللجوء إلى الكتاتيب والزوايا لأنها أشبعت فهمهم الروحي وظلت تربطهم بماضيهم،[٣٥] وحتى لا تعترض هذه المؤسسات الدينية وتواجه الخطة الاستعمارية، فقد تعرضت هذه المؤسسات الثقافية والدينية إلى الهدم والتخريب، وتعرض بعض رجالها للملاحقة والتضييق عليهم بالسجن والنفي، وهذا كله من أجل عزل الشعب عن قيادته الروحية.

(٦) معهد زاوية الهامل

قاوم الشعب الجزائري السياسة الاستعمارية ما وسعه من امكانيات المقاومة بالدفاع عن مؤسساته الثقافية القائمة،[٣٦] وكانت الرابطة الوثيقة بين أفراد المجتمع هي الانتماء للدين الإسلامي وإلى العالم الإسلامي، وكانت الزوايا المنتشرة في ربوع الوطن تمثل نوعًا من مقاومة سياسة التجهيل والفرنسة والتنصير التي انتهجتها السلطات الفرنسية.[٣٧] كان محمد بن أبي القاسم متعلق الروح بجهاد الأمير عبد القادر ضد الفرنسيين بعد استسلام الداي حسين، الذي اختاره الأهالي ليقود المقاومة المسلحة ضد المستعمر.[٣٨] وكان الصوفي والأمير قد التقيا في جبل البيضاء بصحراء لمعيدات سنة ١٨٤٤م[٣٩] عندما كان الأمير يهيئ جيشه لمواجهة الاستعمار خلال الفترة الأولى من معاهدة تافنة، وكان

الأستاذ قد شرع في تعليم الصبية من أبناء منطقة الهامل والنواحي الأخرى. ولما تعرّف الامير على قصده دعاه لمواصلة نشر العلم، وحبّب إليه فتح زاوية لنشر العلم وزرع الروح الوطنية وتبديد ظلام الجهل ومحاربة البدع بين السكان.[٤٠] اعتقادًا منه أن الكتاتيب القرآنية والمساجد والزوايا المنتشرة في القرى والحواضر كانت من بين المعالم الحضارية والصروح الثقافية التي تعتز بها منطقة الحضنة وباتنة وبسكرة وبوسعادة وغيرها، مثل زاوية سي محمد بن بلقاسم، وزاوية سي علي بن عمار، وزاوية المختار بن خليفة بأولاد جلال،[٤١] التي أسهمت في المجهود الوطني. وتوطدت علاقة الأمير بالشيخ محمد بن أبي القاسم وتوثقت بعد نفيه إلى بلاد الشام، في شكل تبادل الرسائل،[٤٢] كانت بداية تأسيس زاوية الهامل سنة (١٢٦١هـ/١٨٦٢م) بعدما أخذ الأستاذ الإجازة من أستاذه الشيخ سيدي أحمد بن أبي داود شرع في الجلوس للتدريس المُحبّب إليه وبدأ في تعليم مبادئ الدين الحنيف. يتحدث الاستاذ في سيرته الذاتية عن نشاطه فيقول: "... وبعد خمس سنين قدمت لبلدي قرية الهامل سنة ١٢٦١هـ فأقمت بها ثماني سنين، لتعليم الناس الفقه وغيره بزاوية القرية المعلومة، المسماة الجامع الفوقاني، فلم أفارق الجامع ليلاً ولا نهارًا إلى تمام سنة ١٢٧٢هـ.[٤٣]

توافد الأساتذة الأجلاء على الزاوية للتدريس بها، والطلبة على التعلم بها من جميع جهات الوطن، وتحولت الزاوية إلى مُنتدى ثقافي ومعلم ديني بلغ صداه القلوب التي اهتدت من جديد إلى طريق الحق، وانتفعت بهداه العشائر والقبائل التي غلبت العقل وأنصتت لنداء الحق، فمال الناس إلى بعضهم البعض ونسوا الشحناء والبغضاء التي ما فتئ الاستعمار يُغذيها ليتسنى له تحقيق أغراضه الدنيئة. كانت عظمة معهد زاوية الهامل بعظمة شيخه العارف بالله، العبقري، صاحب الشخصية القوية المُخلص في عمله ولربه،[٤٤] بفضل الله وتوفيقه اشتهر معهد زاوية الهامل سريعًا، وبعد أن كانت قرية الهامل تضم مدرستين قرآنيتين وبعض الكتاتيب القرآنية الصغيرة عند بداية الاحتلال، وصارت بعد ذلك مركز اشعاع علمي وديني عظيم، وهذا ما كان يحتاج إليه سكان المنطقة لينفضوا غبار الجهل عنهم، ويتسلحوا بسلاح العلم، ويُقووا عقيدتهم وإيمانهم بالله، وتتآخى العروش والقبائل والأفراد فيما بينهم ويشكلوا قوة يصعب على المُستعمر الغاشم اختراقها وكسرها. كانت المكاتب عربية التي أحدثها الفرنسيون تعمل ظاهريًا على الاستجابة لبعض حاجيات السكان وترقيتهم وتحسين ظروف حياتهم، إلا أنها كانت في الأصل جزءًا من الآلة الاستعمارية التي زرعت الموت والدمار.[٤٥]

كان الفرنسيون يعتقدون أن الزوايا تغذي التعصب الديني وهي سبب في كل الثورات التي قام بها الجزائريون في مناطق مُختلفة، وخصوصًا الزاوية الرحمانية وأن موردي الطريقة الرحمانية مُتعصبون جدًا، وأنهم أكثر ابتعادًا عن الفرنسيين من بقية الطرق الأخرى. وينسى هؤلاء الفرنسيين أنهم مُعتدون وغاصبون لأراضينا وممتلكاتنا، وقاهرون لمناضلين، ومُغلقون لزوايانا ومساجدنا وكتاتيبنا، ومُشتتون شمل عروشنا وقبائلنا، التي تعتبر رمز القوة والاتحاد للسكان. ويرى[٤٦].. إن نجاح الأمير عبد القادر في مقاومته للفرنسيين راجع إلى أنه ابن طريقة صوفية، وهذا أمر بالغ الخطورة لأن الفرنسيين يعتقدون أن كل من يتردد على الزوايا من عالم ومتعلم فهو عدو مقيت يجب التصدي له. وكيف ما كان الحال فإن الزوايا في الجزائر قد لعبت دورًا مهما في الحياة السياسية للبلاد، حيث كانت عبارة عن رباطات يقيم بها العلماء والطلبة في أماكن متقدمة من أرض المعركة لمواجهة الاعداء، وكان المرابطون يقودون اتباعهم في الحروب الجهادية، وينصرون المجاهدين بكل الوسائل من مال وطعام في زواياهم.[٤٧]

ظهرت في منطقة الحضنة ما بين (١٨٤٤-١٨٧١م) عدد من المتصوفة الذين كانت لهم صلة واحدة تتمثل في التزاماتهم تجاه الدين المُحمدي، وكان من بينهم السيد سعد التيباني بغرب الحضنة، والمنتمي لطريقة مولاي الطيب، وكان هذا الاخير على صلة بالمجاهد بومعزة.[٤٨] لقد أدت زاوية الهامل دورًا بارزًا في تنوير عقول الصبية والكبار وإعدادهم روحيًا وعمليًا للنهوض بالمجتمع لمقاومة التغريب والتنصير والاندماج .كان يزاول الدراسة بالزاوية سنويا ما بين (٢٠٠ و ٣٠٠) طالب، وهو عدد مُعتبر إذا نظرنا للظروف التي كان يتحكم بها الاستعمار الفرنسي، وكان يُدرسهم عدد من خيرة اساتذة الجزائر، منهم الشيخ إدريس عاشور، ومحمد بن عبد الرحمن الديسي وغيرهم. أما البرامج التعليمية فتختلف من مُستوى لآخر، حسب السن ومُستوى حفظ القرآن والتحصيل، وكان أغلب الطلبة يتمتعون بالنظام الداخلي.

المُنعطف ونقطة التحول والانطلاق في تطوير العملية التعليمية للشيخ، كانت مع بداية تأسيس الزاوية، لتنوير العقول بما سيعود على الأمة بالنفع ولو على مضض. كان ضباط المكاتب العربية قد تلقوا تعليمات بمُقتضى منشور صادر عن الحاكم العام بتاريخ ٢٧ نوفمبر ١٨٤٧م لجمع المعلومات المُتعلقة بالزوايا وأتباعها من أجل مراقبتهم وجمع المعلومات عنهم، ومن بين هذه الزوايا بالمنطقة زاوية باتنة وزاوية بسكرة وبوسعادة.[٤٩] وقد عرفت الزاوية التضييق من قبل السلطات الفرنسية بعد قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة، وأصبحت المدارس والكتاتيب والمساجد تخضع مباشرة للحكام الفرنسيين الذين يشترطون الحصول على إذن مكتوبا لكل معلم يريد مزاولة مهام التدريس، أو جماعة تريد تدشين مدرسة أو زاوية. وهذا ما أدى إلى الحدّ من نشاط المراكز التعليمية. وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) خضع الأهالي والمراكز التعليمية والمعلمون لقانون الطوارئ الذي أصدرته الحكومة الفرنسية، وسيزداد التضييق على الأهالي في

كل المجالات، لكن إرادة الشعوب لا تقهر، وأن ما غرسه المتصوفة والعلماء في نفوس النشء على مدى الدهر سيُلهم هذا الشعب طرائق وسبلا يسلكها من أجل التحرر والانعتاق من نير المُستعمر.

خَاتِمَةٌ

المتصوفة من رجال الدين والعلماء حملوا على عاتقهم مُحاربة الجهل، ونشر العلم والأخلاق الحميدة، والحث على التكافل الاجتماعي في الأوقات العصيبة بين أفراد المجتمع، وعدم الخضوع لسياسة المستعمر وقبول الأمر الواقع، والذل والهوان الذي فرضه المُستعمر بقوة السلاح، وقد كان وما زال لهؤلاء النخبة من الرجال الطيبين الدور الريادي في تنوير عقول العامة من الناس ودلهم على طرق التوحد وعدم التفرق، وتجنب الضغائن والاعتداء على ممتلكات وأرواح الآخرين وإن اختلفوا معهم في أمور كثيرة، وفي حال تعرض الوطن لمكروه تجد المتصوفة ورجال العلم مرابطون في سبيل الله والدود عن الأوطان لتحرير البلاد والعباد من الجهل والاستعمار، لأن العلم والدين من الأمور الأساسية في حياة المُجتمعات المسلمة.

الهَوامِشُ:

(١) سليماني(سعاد)، **منشآت الري القديمة في منطقة الحضنة**. جامعة منتوري. قسنطينة.
Atlas historique archéologique de Stif.cnepru.3.8.2012.

(٢) بيرم (كمال)، **الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الحضنة الغربية فترة الاحتلال الفرنسي (١٨٤٠- ١٩٥٤)**. أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث المعاصر. جامعة منتوري. قسنطينة. ص:٩.

(٣) بيرم (كمال)، **بلدية المسيلة المختلطة دراسة اقتصادية واجتماعية بين ١٨٨٤-١٩٤٥**. مذكرة ماجستير في التاريخ وحضارات البحر المتوسط. إشراف أ.د. حداد مصطفى. جامعة منتوري. قسنطينة ٢٠٠٢-٢٠٠٦/١٤٢٥-١٤٢٦. ص:٩.

(٤) فركوس (صالح)، **إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق الجزائر ١٨٤٤-١٨٧١**. منشورات جامعة باجي مختار.عنابة.٢٠٠٦. ص:٩.

(5) Kaddach (Mahfoud), L'Algérie dans l'antiquité, s.n.e.d. Alger, 1973, p :38.

(٦) بيرم (كمال)، المرجع السابق، ص:٢٣٠.

(٧) بيرم (كمال)، نفسه، ص:٢٧٨.

(8) Guin(L), Notes historiques sur les n°17,1873,p :117 .٨ Adaoura, revue Africaine.

(٩) بيرم (كمال)، المرجع السابق، ص:٢٣٥.

(10) Feraud (L) -histoire de msila; recueil de constentine1872 p.336.

(11) Guin (L).notes historiques sur les adaoura. revue africaine. 1873. p :117.

(١٢) بيرم (كمال)، نفسه، ص٢٣٧.

(١٣) بيرم (كمال)، نفسه، ص:٢٥٩.

(١٤) بيرم (كمال)، نفسه، ص:٢٥٩.

(15) Acmm:b,118,affaire indigène, lettre des notables et citoyens de m'sila a monsieur le préfet de Stif 1911.
بيرم (كمال)، بلدية المسيلة، نفسه.

(١٦) بوعزيز (يحيى)، **الموجز في تاريخ الجزائر**، ج٢- الجزائر الحديثة- ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر٢٠٠٩، الطبعة الثانية، ص:١٤٥.

(17) Féraud (L .Charles), Documents pour servir à l'histoire de١٧-Bonne .revue Africaine,n°17,1873.p,4.

(18) Sebhi (Salim), mutations du monde rural Algéri en, le Hodna .o.p.u.Alger.p :105.

(١٩) مياسي (إبراهيم)، **الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية ١٨٣٧-١٩٣٤**، دار هومة. ٢٠٠٩. ص:٤٠.

(٢٠) فركوس (صالح)، المرجع السابق. ص: ١١-١٣.

(٢١) مياسي (إبراهيم) المرجع السابق، ص:٢٨-٣١.

(٢٢) مجاود (محمد)، "**دور الزوايا في الحركة الوطنية والثورة التحريرية**". المواقف، مجلة الدراسات والبحوث في المجتمع والتاريخ. عدد خاص. أبريل ٢٠٠٨. منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطنبولي. من(٣١٣ -٣٢٦)، ص: ٣١٧.

(٢٣) قمعون (عاشوري)، **طبيعة العلاقة بين السلطة العثمانية والطرق الصوفية في الجزائر**. السجل العلمي لأعمال الملتقى الدولي- العلاقات الجزائرية التركية- الجزء الثاني. جامعة بسكرة، الجزائر. الصفحات من (١٣٣-١٤٨). ص: ١٣٥.

(٢٤) خليفي (عبد القادر)، **محطات من تاريخ الجزائر المجاهدة ١٨٣٠-١٩٦٢**. ص: ٢٦١.

(25) Devoulx (Albert)-Edifices religieux d'Alger .revue africaine-année 1862-volume 6-p 372.

(٢٦) بوعزيز(يحيى)، **"أوضاع المؤسسات الدينية في الجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين"**، مجلة الثقافة، عدد ٦٣، ماي-جوان ١٩٨١.

(٢٧) سعد الله (أبو القاسم)، **الحركة الوطنية**. ج١.الجزء الأول. القسم الأول. الجزائر ١٩٩٢. ص: ٣٣٤-٣٣٥.

(٢٨) فركوس (صالح)، **تاريخ الجزائر من قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال**. المراحل الكبرى. ص:٢٤٤.

(٢٩) العسلي (بسام)، **المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي ١٨٣٠-١٨٣٨**، دار النفائس-١٩٨٣/١٤٠٣. ص:١٨٨.

(٣٠) فركوس (صالح)، **تاريخ الجزائر من قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال**. نفسه، ص:٢٧٩.

(31) Vatin claude-puissance d'état et résistance islamique en algerie-paris1981-p 245-246.

(٣٢) خليفي (عبد القادر)، **محطات من تاريخ الجزائر المجاهدة ١٨٣٠-١٩٦٢**. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر ٢٠١٠، ص: ٢٧١.

(٣٣) فركوس (صالح)، المرجع السابق، ص:٧٣.

(٣٤) جاود (محمد)، **دور الزوايا في الحركة الوطنية والثورة التحريرية**. المواقف، مجلة الدراسات والبحوث في المجتمع والتاريخ. عدد خاص. أبريل ٢٠٠٨. منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطنبولي. ص: ٣١٣-٣٢٦.

(٣٥) خليفي (عبد القادر)، **محطات من تاريخ الجزائر المجاهدة ١٨٣٠-١٩٦٢**، ص: ٢٧٣.

(٣٦) خليفي (عبد القادر)، **محطات من تاريخ الجزائر المجاهدة ١٨٣٠-١٩٦٢**، نفسه، ص: ٢٧٠.

(٣٧) خليفي (عبد القادر)، نفسه، ص: ٢٧٢.

(٣٨) جيلالي (عبد الرحمن)، **تاريخ الجزائر العام**.ج٤. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر (١٤١٥/ ١٩٩٤). ص:٦٠.

(٣٩) (الطيب)، **"الزاوية القائمة بالهامل"**، جريدة الخبر اليومي، تاريخ ١٠ غشت ٢٠١٠، عدد ٦٨٠٤.

(٤٠) منتديات زاوية الهامل، مجلة الكترونية، (٦- ٨- ٢٠١٢).

(٤١) فركوس (صالح)، **تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال**- المراحل الكبرى- ص:٢٨٠.

(٤٢) (الطيب)، **"الزاوية القائمة بالهامل"**، جريدة الخبر اليومي، تاريخ ١٠غشت ٢٠١٠، عدد ٦٨٠٤.

(٤٣) منتديات زاوية الهامل، (٦-٨-٢٠١٢).

(٤٤) دبوز (علي محمد)، **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**.ج٢. طبعة ١٩٦٥. المطبعة التعاونية. سوريا.

(٤٥) فركوس (صالح)، المرجع السابق. ص:١٩.

(46) Berque(Augustin), L'organisation communale des indigènes de l'Algérie. Librairie Emil la rose .Paris 1918.

(٤٧) سعد الله (أبو القاسم)، **تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري** (١٦-٢٠م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٨١. ص:٢٦٦.

(٤٨) فركوس (صالح)، المرجع السابق. ص:٧٠.

(٤٩) فركوس (صالح)، نفسه، ص:٧٤-٧٦.